سياحة إيمانية في سورة يوسف

دكتور محمود ماضي
كلية الدعوة بالمدينة المنورة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار المجتمع للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م

دار المجتمع للنشر والتوزيع

الرئيسي : جدّة - ميدان الجامعة - ص.ب: ٤٠٨٤٥ - جدّة ٢١٥١١
الادارة ٦٨٩١٤١٧
المكتبة ٦٨٩٤٤٦١
الفاكس ٦٨٩٤١٤٤

الفروع : الخبر - شارع الأمير نايف - تقاطع ١٦ - ص.ب: ٢٣٢١ - الخبر ٢١٩٥٢
المكتبة ٨٩٤١١٣٦
الفاكس ٨٦٤٣٧٣٥

المدينة المنورة - شارع الستين - ص.ب: ٢٠٢٤٢
المكتبة ٨٣٨٨٢٩٦
الفاكس ٨٣٨٨٢٩٧

سياحة إيمانية
في
سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يوسف : ١١١

« علموا أرقاءكم سورة يوسف ، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً »[1] .

حديث شريف

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص: ٤٦٦ مكتبة دار التراث .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين . وبعد :

ما أن تقرأ وتسمع القرآن الكريم بقلب واع متفتح متجرد من الهوى إلا وتستشعر حقيقة أن القرآن الكريم ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾(١) ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ . . ﴾(٢) .

حول سورة يوسف عليه السلام

هل هذه التأملات هي من قبيل التفسير الموضوعي ؟

حقيقة لا أزعم لنفسي هذا . هل هي خواطر ؟ قد تكون كذلك ، أو قل هي نفحات ربانية على قلب عبد لجأ إلى ربه ومولاه فكانت تلك النفحات ثماراً .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

سورة يوسف عليه السلام ، ولماذا سميت بأحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ؟ .

آراء وآراء وكلها تجمع على فضلها والدروس المستفادة منها لكل زمان ولكل مكان فهي جزء من كل ، هي جزء من القرآن الكريم الذي هو كتاب الأزمان جميعاً لا زمن واحد ، أي هو كتاب كل عصر .

سميت سورة يوسف بأحسن القصص : لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة وبيان ذلك ـ فيما يقول الإمام القرطبي[1] ـ قوله تعالى في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2] .

وقيل : سماها أحسن القصص : بحسن مجاوزة يوسف عن أخوته وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم ـ بعد التقائهم ـ عن ذكر ما تعاطوه ـ وفعلوه ـ وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾[3] .

وقيل : لأن الله تعالى ذكر فيها : الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجنة والأنس والأنعام والطير وسير الملوك والممالك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء ، وحيلهن ومكرهن وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا .

وقال بعض الحكماء: إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز ، قيل : والملك أيضاً أسلم مع يوسف وحسن إسلامه ، والساقي صاحب الرؤيا والشاهد فيما يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى الخير .

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص: ٣٣٤ دار الريان للتراث .
(٢) يوسف : ١١١ .
(٣) يوسف : ٩٢ .

من خلال هذه التأملات حاولت الكشف عن معنى الصبر ، والصبر الجميل وهل كل صبر محمود أم أن هناك من الصبر ما هو مذموم ؟ أين موقع الصبر على ظلم الطواغيت وقهرهم ؟ .

صبر يوسف : متى وأين تجلي ؟ وإذا كان صبر على محن وشدة الجب والسجن وحقد أخوته وحسدهم فهل صبر على محنة النعيم والجاه والسلطان ؟ وهل يصح تمكين بغير ابتلاء وصبر ؟ .

ما العظات والعبر ؟ والدروس المستفادة لمسلمي اليوم ؟ .

وإذا كان الله تعالى نهانا عن تزكية النفس ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾[٢] فلماذا زكى يوسف نفسه بقوله ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[٣] ما موقف الشرع من تزكية يوسف نفسه ؟ .

وهل يجوز ليوسف أن يطلب الإمارة والحكم لنفسه بقوله : ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ (٢) وقد نهى الرسول (ﷺ) عن طلبها .

وكيف يتسنى ليوسف وهو النبي المعصوم أن يلجأ إلى مخلوق يطلب منه العون حين قال للساقي ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ؟ .

وهل الاعتماد على الله والتوكل عليه ينافي الاستعانة بالمخلوق ؟ ما الفائدة التي تعود علينا من استيعاب هذا الدرس ؟ في تعاملنا مع الكافر والعدو الكافر ؟ .

كيف جاز ليوسف الهم بالمرأة ، وما الفرق بين همه وهمها ؟ ما هي براهين براءة يوسف وكيف جعل الله تعالى أدلة إدانته براهين براءته ؟ .

وإذا كان أخوة يوسف أنبياء ـ على رأي بعض العلماء ـ فلماذا هذه الذنوب : من كذب على أبيهم ، وحقد وحسد على يوسف ومحاولة قتله ؟ والقتل كبيرة فهل للنبي ارتكاب الكبائر ؟ ألا يقدح هذا في عدالته ؟ فضلاً عن نبوته ؟ .

---

(١) النجم : ٣٢ .

(٢) يوسف : ٥٥ .

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ إرادة الله تعالى غالبة قاهرة فهل تمنعنا من الأخذ بالأسباب ؟ هل هي سالبة لإرادتنا وحريتنا واختيارنا ؟ .

لقد ضرب يوسف عليه السلام مثلاً طيباً في الدعوة إلى الله تعالى فهل حالت محنة السجن بينه وبين الدعوة إلى التوحيد ؟ هل شغله الحبس والقيد والإغلال عن دعوته ؟

وأخيراً ، ما المقصود بالرؤيا الصالحة ؟ وهل كل رؤيا تتحقق في الواقع كما رآها الرائي يكون صاحبها صالحاً ؟ .

بمعنى : رأى يوسف رؤيا أولها يعقوب فكانت كما قال ورأى السجينان صاحبا السجن رؤيا وتحققت كما عبرها يوسف ، ورأى الملك وكانت كما عبرها يوسف .

يوسف نبي ورؤيا الأنبياء حق ، فهل يقتضي رؤيا السجينين ورؤيا الملك أنهم صالحين ؟ .

تساؤلات ، وتساؤلات ، حاولت الكشف عن إجابات شافية لها .

لحظات وعبر ودروس مستفادة لعلي أكون قد أصبت في الكشف عنها ولعلنا نستفيد منها ﴿ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[1] .

والله تعالى أسأل التوفيق والسداد والرشاد .

الإسكندرية في : ١٣ رجب ١٤١١ هـ

محمود ماضي

---

(١) يوسف : ٧ .

الصبر
حقيقته وأقسامه

الصبر جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الإيمان ، به نزل الكتاب وجاءت السنة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تأويلان : أحدهما : على الجهاد والثاني على انتظار الصلاة .

وقال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[2] وروى عن النبي ﷺ : « **الصبر ستر من الكروب ، وعون على الخطوب** » .

وقال أيضاً : « **الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد** » .

وقيل أن أصل كلمة الصبر من الشدة والقوة ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته ، قال الأصمعي : « إذا لقي الرجل الشدة بكمالها قيل لقيها بأصبارها » .

وقيل : مأخوذ من الجمع والضم ، فالصبار يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع ومنه صبرة الطعام .

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ .
(٢) الطور : ٤٨ .

والواضح أن في الصبر المعاني الثلاثة : المنع والشدة ، والضم[1] .

وقد عرفه الغزالي والمقدسي بأنه عبارة: «عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها التحق بالشياطين »[2] .

ويرى الغزالي أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء عنه ، فإن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وإن كان في احتمال مكروه سمي صبراً ، وضده الجزع ، وإن كان في احتمال الغني سمي ضبط النفس ، وضده البطر . وإن كان في الحرب سمي شجاعة وضده الجبن وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً وضده التذمر ، وإن كان في نائبه مضجرة سمي سعة الصدر وضده الضجروان كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً وضده الحرص ، وإن كان صبراً على يسير من الحظوظ سمي قناعة وضده الشره[3] .

أقسام الصبر :

والصبر نوعان : محمود ومذموم ، أما المحمود فعلى ستة أقسام :

القسم الأول : الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنه ، لأنه به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين ، وتؤدى الفروض ويستحق الثواب لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4] ولذلك قال النبي ﷺ : « **الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح** »[5] .

---

(١) ابن القيم : عدة الصابرين ص: ١٠ ، ١١ .

(٢) الغزالي : الإحياء ١٢/٢١٧٦ ،
ابن قدامة المقدسي : مختصر منهاج القاصدين ص: ٢٦٩ .

(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٤ ص: ٦٧ .

(٤) الزمر : ١٠ .

(٥) الماوردي : أدب الدنيا والدين جـ ٤ ص: ٥٣٠ ـ دار الشعب بمصر ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

والمعنى أن من خاف الله تعالى صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره .

القسم الثاني : الصبر على مصيبة قد أجهده الحزن عليها أو حادثة قد أكده الهم بها ، فإن الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها ، فإن صبر طائعاً وإلا احتمل هماً لازماً وصبر كارهاً لازماً [1] .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : « **من لم يرض بقضائي ، ويصبر على بلائي فليختر رباً سواي** » .

وفي هذا يقول الإمام علي : «إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور» .

القسم الثالث : الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة وأعوزه نيله من مسرة مأمولة ، فإن الصبر عنها يعقب السلو منها ، والأسف بعد اليأس خرق .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **من أعطى فشكر ، ومنع فصبر ، وظلم فغفر وظلم فاستغفر ، فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون** » .

لا تطل الحزن على فائت فقلما يُجدي عليك الحزن

القسم الرابع : الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها ، فلا يتعجل هماً ما لم يأت فإن أكثر الهموم كاذبة .

القسم الخامس : الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها ، فإنه إن أدهشه التوقع لها وأذهله التطلع إليها فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه ، وإذا كان مع الرغبة وقوراً وعند الطلب صبوراً انجلت عنه عماية الدهشة وانجابت عنه حيرة العلة فأبصر رشده وعرف قصده .

القسم السادس : الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكايد الأعداء فإن من قل صبره

---

(١) الماوردي : السابق .

عزب رأيه ، واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1] .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين ، فافعل وإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر** » .

وروى ابن عباس أن النبي ﷺ لما دخل على الأنصار سألهم : « **أمؤمنون أنتم** » ؟ فسكتوا . فقال عمر : نعم يا رسول الله . قال : « **وما علامة إيمانكم** » ؟ قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال ﷺ : « **مؤمنون ورب الكعبة** »[2] .

هذا عن الصبر الممدوح ومنه صبر يعقوب ويوسف عليهما السلام كما سنبين ذلك بعد قليل .

أما النوع المذموم ، فالصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين فإنه غير واجب بل الواجب إزالته لا سيما الضرر العائد إلى الغير[3] .

يقول الإمام الغزالي : « إعلم أن الصبر ينقسم - باعتبار حكمه - إلى فرض ونفل ، ومكروه ومحرم ، فالصبر عن المحظورات محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتاً ، وكمن يقصد جريمة وشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا صبر محرم .

والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبني أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة »[4] .

---

(١) لقمان : ١٧ .

(٢) رواه االطبراني في الأوسط ، تخريج العراقي لأحاديث الأحياء ١٢/ ٢١٧٠ .

(٣) الرازي : التفسير الكبير جـ ١٨ ص: ١٠٦ دار الفكر بيروت ١٩٨٥ .

(٤) الغزالي : الإحياء جـ ٤ ص: ٦٩ .

والمعنى أن ليس كل صبر محمود فإن من ظلم ويستطيع دفع الظلم عن نفسه أو عن غيره إذا حضر فإن هذا واجب والصبر مذموم .

وقيل الصبر صبران : صبر على الشيء وصبر عن الشيء بمعنى ابتعد عنه وفر منه .

صبر يوسف عليه السلام

كشف القرآن الكريم عن أن الصبر من أخلاق الرسل ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾(١) .

كما أنه من سمات وأخلاق الدعاة إلى الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٢) .

يقول يوسف عليه السلام : ﴿ . . أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٣) .

يوسف إذن يشكر الله تعالى أن منَّ عليه بالصبر فما هي مظاهر صبره حتى أصبح من المحسنين ؟ .

إن التقوى والصبر هما اللذان ارتفعا بيوسف عليه السلام إلى أعلى المقامات .

والتقوى معنى جامع لكل خير والصبر معنى داخل في كل بر فإذا اجتمعا لإنسان كان من المحسنين ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النبي بن

---

(١) الأنعام : ٣٤ .
(٢) السجدة : ٢٤ .
(٣) يوسف : ٩٠ .

النبي بن النبي بن النبي لم يغن عنه كرم أصله ولا عراقته في النبوة إنما الذي أغناه ونفعه : هما التقوى والصبر ، صبره عن الاستجابة إلى امرأة العزيز ، وتقواه إذ سجن وضحى بدنياه من أجل دينه وعقيدته ، صبر عن المعصية اختياراً وإيثاراً لما عند الله .

لقد صبر يوسف على حقد إخوته وإلقائه في الجب وصبر حين فرقوا بينه وبين أبيه وصبر على محنة الاسترقاق ، إلا أن صبره على امرأة العزيز ومراودتها له كان أعظم .

يقوم الإمام ابن القيم ـ نقلا عن الإمام ابن تيمية ـ « كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها ، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر .

وأما صبره عن المعصية ، فصبر اختيار ورضا ، ومحاربة للنفس ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة .

أ ـ فإنه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية .

ب ـ وعزباً ، ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته .

جـ ـ وغريباً ، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه بين أصحابه ومعارفه وأهله .

د ـ ومملوكاً ، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر .

هـ ـ والمرأة جميلة وذات منصب ، وهي سيدته ، وقد غاب الرقيب وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص .

و ـ ومع ذلك توعدته ـ إن لم يفعل ـ بالسجن والصغار .

ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه[1] ؟ .

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين .

هذه هي المحنة الطويلة التي مر بها يوسف، وصمد لها، وصبر عليها صبر على تأثيراتها ومغرياتها ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

والنص صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان التأبي ، المصحوب بتذكر نعمة الله تعالى عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود . فلم تكن هناك استجابة لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب (٢) قالت : « هيت لك » .

محنة ، وأية محنة يصفها صاحب «الكشاف» بأنها حال تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، ويوسف يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم . . . واستعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته (٣) .

لقد جاهد يوسف نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم حتى استحق من الله الثناء .

فائدة :

ذهب الإمام الرازي إلى أن قوله : « معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وإلطافه في حق العبد فقوله : (معاذ الله) إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع من هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة .

وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزى في

---

(١) يوسف : ٢٣ .

(٢) سيد قطب : الظلال جـ ٤ ص: ١٩٨ دار الشروق .

(٣) الزمخشري : الكشاف جـ ٢ ص: ٤٥٦ دار الريان للتراث ١٩٨٧ .

الدنيا وعذاب شديد في الآخرة واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله : (إنه لايفلح الظالمون) إشارة إليه[1].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] والذي جاء قبل قوله تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ .

نقول إن فيه إشارة إلى نعم ومنة الله تعالى على يوسف منها : نفوذ حكمه على نفسه حتى غلب شهوته وامتنع عما راودته المرأة عن نفسه إذ من لا حكم له على نفسه فلا حكم له على غيره .

وعندها علم يوسف أن ما يعقب اتباع اللذة من الندم والحسرة أشد من معاناة الصبر عن إتيان الشهوة .

يقول الإمام ابن القيم : « أعلم أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة ، فإن الشهوة : إما أن توجب ألماً وعقوبة وإما أن تقطع لذة أكمل منها وإما أن تضيع وقتاً أضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه ، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير من ذهابه وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه ، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك ، وإما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة وإما أن تنسي علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة وإما أن تشمت عدواً وتحزن ولياً وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة ، وإما أن تحدث عيباً يبقي صفة لا تزول ، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق »[3] .

ولما آثر يوسف مشقة الصبر عن الشهوة جزاه الله الجزاء الأولى وهو معنى

---

(١) الرازي : التفسير الكبير جـ ١٨ ص: ١٧٧ دار الفكر بيروت .
(٢) يوسف : ٢٢ ـ ٢٣ .
(٣) ابن القيم : الفوائد ص: ١٣٩ .

قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1] أي لنهديهم سبل الصبر على الاستقامة .

محنة السجن والصبر عليها :

تمت المواجهة ـ بعد المطاردة ـ بين يوسف والمرأة والشاهد وظهرت براءة يوسف ، إلا أن المرأة هددته في حضرة النسوة ﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[2] إما أن يزني ويكون من الفاسقين وإما أن يسجن ويكون من الصاغرين محنتان كلاهما مر .

وأمام هذا التهديد أصبح يوسف مواجهاً بعدة ضغوط ووساوس أحدها أن «زليخا» كانت في غاية الحسن .

والثاني : أنها كانت ذات مال وثروة وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها .

والثالث : أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء في هذا الباب شديد .

الرابع : أنه عليه السلام كان خائفاً من شرها وإقدامها على قتله .

وبذلك يكون قد اجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها ، فخاف أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه ، فلجأ إلى الله تعالى قائلاً : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[3] .

والمعنى أن السجن شر ولكن ما يدعون يوسف إليه ـ من زنى وتهتك ـ أكثر شراً من السجن ، فأعلن أن السجن أحب إليه ليقطع عليها أي أمل وهي تخوفه من الحبس .

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .
(٢) يوسف : ٣٢ .
(٣) يوسف : ٣٣ .

حمل يوسف إلى السجن وطيف به « هذا جزاء من يعصي سيدته » وهو يقول : هذا أيسر من مُقطَّعات النيران ـ مثل قوله تعالى : ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾[1] ـ وسرابيل القطران وشراب الحميم وأكل الزقوم .

وحكي أن يوسف لما قال : « السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » أوحى الله إليه : يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إلي ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت[2] .

لذلك رد رسول الله ﷺ على من كأن يسأل الصبر ، فقد روى الترمذي عن معاذ بن جبل عنه ﷺ أنه سمع رجلاً وهو يقول : « اللهم أسألك الصبر فقال ﷺ : «**سألت الله تعالى البلاء فاسأله العافية** »[3] وثبت بهذا أن انصراف العبد عن القبيح ليس إلا من الله تعالى .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[4] .

وبلغ الظلم مداه أن يسجنوه بعد ما تبين لهم براءته وطهارته وعفته سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك[5] ، ولهذا لما طلبه الملك في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه .

«وقال الملك : أئتوني به ، فلما جاءه الرسول قال : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

روي أن الرسول ﷺ قال : « **عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجوني** » ، ولقد عجبت حين أتاه الرسول فقال : « **ارجع**

---

(١) الحج : ١٩ .
(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص: ٣٤١٣ .
(٣) الألوسي : روح المعاني جـ ١٢ ص: ٢٣٥ دار إحياء التراث .
(٤) يوسف : ٣٥ .
(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص: ٤٧٧ الحلبي .

إلى ربك » ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وبادرتهم إلى الباب ولما ابتغيت العذر ، إنه كان حليماً ذا أناه »[1] .

وذلك لأن يوسف بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءته مما نسب إليه .

محن ومحن كل واحدة تسلم إلى أختها ، فمن محنة الجب إلى محنة الاسترقاق إلى محنة امرأة العزيز إلى محنة السجن ـ ظلماً ـ إلى محنة المنصب والجاه والسعة والرخاء ويوسف فيها صابراً محتسباً .

ولما كان غاية صبر يوسف الله ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾[2] كان جزاؤه محبة الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3] عاقبة الصبر ونتائجه سنعرض لها بعد الإشارة إلى مظاهر صبر يعقوب عليه السلام .

وفيها تسرية عن رسول الله ﷺ وتسلية له إذ وجهه الله تعالى إلى الصبر ، الصبر لربه « ولربك فاصبر » وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت .

إن الصبر هو الزاد الأصيل في معركة الدعوة إلى الله ، وإنها لمعركة مزدوجة مع شهوات النفس ، ومع أعداء الدعوة والصبر قوة لأن الضعيف يجزع ولا يقوى على الصبر والاحتمال .

صبر يعقوب ومظاهره

يروى أن يوسف كان أحب إلى يعقوب من أخوته ، قيل لأنه أصغرهم ، وحب الصغير أمر فطري ، وقد سئلت أم : أي بنيك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود والمريض حتى يشفى .

---

(١) الرازي : التفسير الكبير جـ ١٨ ص: ١٥٥ وتفسير ابن كثير جـ ٢ ص: ٤٨١ .
(٢) المدثر : ٧ .
(٣) آل عمران : ١٤٦ .

غير أننا نرى أن إيثار يعقوب يوسف بمزيد حب ليس لكونه أصغرهم وإلا فبنيامين أصغر من يوسف .

ذهب الإمام الألوسي إلى أنه إنما أحبه أكثر منهم لما رأى فيه من مخايل الخير ما لم ير فيهم . . ولما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة فكان لا يصبر عنه ويضمه كل ساعة إلى صدره[1] .

ولكن لماذا أقدم يعقوب عليه السلام على تفضيل يوسف وأخوه على بقية أولاده وهو يعلم أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ؟ .

ذهب جمهور العلماء والمفسرون إلى أن المحبة ليست مما يدخل تحت وسع البشر والمرء معذور فيما لم يدخل تحته[2] والمقصود أن زيادة المحبة لا يملكها يعقوب باعتبار أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن .

بلغ من فرط حبه له وخوفه عليه أن ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ ﴾، أي أنني لا أطيق فراقه أو لشدة مفارقته علي وقلة صبري عنه .

« وأخاف أن يأكله الذئب . . . » .

استسلم يعقوب وذهبوا بيوسف لينفثوا عن حقدهم وحسدهم[3] ﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ ﴾ ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

سئل رسول الله ﷺ عن قوله : « **فصبر جميل** » فقال : « **صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر** » ويدل عليه من القرآن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وقال الثوري : من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك[4] .

---

(١) الألوسي : السابق ص: ١٩٠ .
(٢) الألوسي : السابق ص: ١٩٠ .
(٣) سنعرض لأمرهم بعد ذلك .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير السابق ص: ٤٧٢ .

وقيل : إن يعقوب عليه السلام سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فسئل عن سبب ذلك فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان ، فأوحى الله إليه أتشكوني إلى غيري ، فقال : يا رب خطيئة فاغفرها لي[1] .

ولكن هل حزن يعقوب وشكواه تنافي الشكوى إلى الله تعالى ؟ لقد قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم : « **إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون** »[2] .

استدل العلماء من بياض عينيه بسبب البكاء على جواز التأسف والبكاء عند النوائب ولعل الكف عن أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد .

وعن النبي ﷺ أنه بكى على ولد بعض أبنائه وهو يجود بنفسه فقيل يا رسول الله ، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ؟ فقال : « **ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت الفرح وصوت عند الترح** » .

نريد أن نقول : إن كلام يعقوب ليس شكوى وإنما هو إخبار عن الحال والواقع بلا تبرم ولا تسخط ولا جزع ، وهذا لا يعارض الصبر .

يقول الإمام ابن القيم : « لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضادها واقعاً على هذه الجملة ، فمنه الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكا العبد ربه إلى مخلوق مثله ، فقد شكا من يرحمه إلى من لا يرحمه ، ولا تضاره الشكوى إلى الله كما تقدم في شكاية يعقوب إلى الله مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ .

وأما إخبار المخلوق بالحال ، فإن كان للاستعانة بإرشاده ، أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرره لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه»[3] .

---

(١) القرطبي : السابق ص: ٣٣٨١ .
(٢) صحيح ابن ماجه ١٢٩٢ .
(٣) ابن القيم : عدة الصابرين ص: ٢٦٩ .

ومن المعروف أن الحزن إلى الحد اللائق المعتدل من مقتضى الطبيعة البشرية ولا سبيل إلى دفعه .

وذكر الإمام البخاري ـ هنا ـ حديث أم المؤمنين عائشة في الأفك حتى ذكر قولها: «والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون»» .

تعلق يعقوب بالصبر الجميل مرة أخرى مع فراق ولده الثاني ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ وصبره هنا ليس صبر اليأس والقنوط وإنما هو صبر الآمل الراجي فضل الله الواثق بأن بعد العسر يسراً وبعد الفرقة اجتماعاً[1] ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾[2] .

نتائج الصبر

لا شك أن للصبر أثراً طيباً في حياة الأفراد والأمم ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الآثار والنتائج الطيبة في كثير من الآيات ، فضلاً عن ثناء الله على الصابرين .

يسوق الله تعالى البشرى للصابرين : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[3] .

وجعل الله تعالى الجنة جزاء للصابرين ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[4] قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[5] وقال

---

(١) د. يوسف القرضاوي : الصبر في القرآن ص: ٦٨ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٧٧ .
(٢) يوسف : ٨٣ .
(٣) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .
(٤) الإنسان : ١٢ .
(٥) الزمر : ١٠ .

تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[1] .

ولارتباط التقوى والصبر جعل الله تعالى المتقين الصابرين من أحبائه : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2] ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] وقد فسر (الضحاك) (المحسنين) بالصابرين على النوائب[4] .

أما عاقبة صبر يوسف وأبيه ـ عليهما وعلى نبينا السلام ـ فواضحة في مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5] .

والمعنى ـ فيما ذهب بعض المفسرين ـ أن الله تعالى بين أن إخوته لما أساؤا إليه ، فصبر على تلك الشدائد والمحن فمكنه الله تعالى في الأرض ، ثم لما بلغ أتاه الله الحكم والعلم .

والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن[6] .

غير أننا ننبه إلى أن النبوة تعد من أعظم النعم وأجلها ولكن لا يمكن اعتبارها جزاء على الأعمال الحسنة ، فالنبوة اجتباء وليست اكتساب .

أما الحكم الذي منّ الله تعالى به عليه فقيل : الحكمة أي العلم النافع المؤيد بالعمل لأنه بدونه لا يعتد به ، والعمل بدون العلم سفه ، أما العلم ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فقيل علم تأويل الرؤيا ، أو العلم بوجوه المصالح فإن

---

(١) الرعد : ٢٤ .
(٢) آل عمران : ١٤٦ .
(٣) يوسف : ٩٠ .
(٤) الألوسي : روح المعاني : السابق ص: ٢١٠ .
(٥) يوسف : ٢٢ .
(٦) الرازي : السابق ص: ١١٢ .

الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز أمره بـأن يحكم بينهم لما رأى من عقله وإصابته في الرأي[1] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قيل الصـابرين على النـوائب كما صبـر يوسف .

قال الإمام الطبري : « وإن كان هذا ينطبق على كل محسن إلا أن المراد به محمد ﷺ ، فالله تعالى يقول له : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض »[2] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[3] .

الصبـر على محنـة الجب يقـابلها القصـر المنيف في كنف الملك ، والصبر على محنة السجن يقابلها كرسي الحكم والوزارة ، فالمقدمات ابتلاء والنتائج تمكين .

يقول صاحب «الظلال» فعلى هذا النحـو من إظهار بـراءة يوسف ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب . . . على هذا النحو مكن الله ليوسف في الأرض .

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ يتخذ منها المنزل الذي يريد والمكـان الـذي يريد والمكانة التي يريد في مقابل الجب وما فيه من مخاوف والسجن وما فيه من قيود .

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ .

---

(١) الألوسي : روح المعاني ص: ٢٠٩ .
(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص: ٣٣٩١ .
(٣) يوسف : ٥٧ .

فنبدله من العسر يسراً ومن الضيق فرجاً ومن الخوف أمناً ومن القيد حرية ومن الهوان على الناس عزاً ومقاماً علياً .

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

الذين يحسنون الإيمان بالله والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس . . هذا في الدنيا[1] .

قال ابن عباس: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني الصابرين ، لصبره في الجب ، وفي الرق وفي السجن ، وفي صبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة[2] .

ولهذا قيل :

أما في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الظلم والأفك
أقام جميل الصبر في الحبس برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك

مشروعية طلب الولاية وتزكية النفس:

ولكن محنة الابتلاء بالرخاء والملك ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ تحيلنا إلى التساؤل :

كيف جاز ليوسف أن يطلب الإمارة لنفسه ؟ وكيف جاز له أن يزكي نفسه ؟ وكلها أمور نهى عنها الشرع .

إن يوسف ـ عليه السلام ـ إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الحقوق إلى الفقراء ، فرأى أن ذلك فرضاً متعيناً عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكذا الحكم في أي زمان لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ويخبر بصفاته التي

---

(١) سيد قطب : الظلال جـ ٤ ص: ٢٠١٤ .
(٢) القرطبي : السابق ص: ٣٤٤٨ .

يستحقها به من العلم والكفاية[1] وغير ذلك[2] .

بل إن الإمام الألوسي ذهب إلى أن الآية دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر[3] .

أما الإمام الرازي فإنه لا يسلم بأن يوسف قد زكى نفسه وإنما غلب على ظنه ـ يوسف ـ أنه يحتاج إلى هذا الوصف ـ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ـ لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالماً بأنه يفي بهذا الأمر .

وعلى فرض أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل . . . وقوله تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية ، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أما إذا كان الإنسان عالماً بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع[4] .

أما صاحب (الظلال) فإنه نظر إلى الموضوع نظرة أخرى فقال :

إن الحكم الفقهي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها المناصب وهو المأخوذ من قوله تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[5] ومن قوله ﷺ : «**إنا والله لا نولي هذا العمل أحد سأله**» .

لقد نشأ هذا الحكم في مجتمع مسلم ليطبق في هذا المجتمع وليعيش في هذا الوسط وليلبي حاجة ذلك المجتمع . . فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي . .

---

(١) انظر الإمامة بين الزيدية والمعتزلة رسالة ماجستير للمؤلف .
وأيضاً : معالم الشورى في الإسلام للمؤلف .
(٢) القرطبي : السابق : ص: ٣٤٤٥ .
(٣) الألوسي : السابق : ص: ٥ جـ ١٣ .
(٤) الرازي : السابق : جـ ١٨ ص: ١٦٥ .
(٥) النجم : ٣٢ .

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم ولا يرشحون أنفسهم الوظائف لا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة . . . . ؟ .

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحداً بالتزاحم عليه ـ اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى ـ ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم وهؤلاء يجب أن يمنعوها .

أما حقيقة موقف يوسف ، فإنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم ينطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية ، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه[1] .

وعليه فليس هناك ما يدعو إلى الظن بيوسف عليه السلام إنه زكى نفسه تزكية مذمومة ويمكن النظر إليها من باب الأمر بالمعروف وأنه الأجدر بهذه المنزلة وتلك المكانة .

عاقبة صبر يعقوب :

أما يعقوب عليه السلام ، فقد صبر على فقد أحب أبنائه إليه ـ يوسف ـ فرده الله تعالى إليه وصبر على فقد بصره فرده الله تعالى بصيراً .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ من يتق معاصي الله تعالى ويصبر على الابتلاءات دون جزع وضجر ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

---

(١) سيد قطب : الظلال جـ ٤ ص : ٢٠٠٦ ، ٢٠٠٧ ، ٢٠١٣ .

الفصل الثاني

«الحسد وعاقبته»

لا شك أن الحسد من الأخلاق المذمومة والحسد هو التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير وما يجده فيه من الفضائل والاجتهاد في إعدام ذلك ما هو فيه[1] ومعناه : أن الحاسد يتمنى زوال ما أنعم الله تعالى على الغير من النعم .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحسد وحذر من عاقبته فقال : « **إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب** »[2] ثم يبين ﷺ فائدة التقوى ونقاء السريرة قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان** » قالوا صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟ قال : « **التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد** »[3] .

قد أمر الله تعالى بالاستعاذة من الحسد والحاسد فقال تعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[4] .

ولكن جاء فيما يرخص من الحسد قول النبي ﷺ : لا حسد إلا في

---

(١) الجاحظ : تهذيب الأخلاق دار الصحابة للتراث ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م .
(٢) رواه ابن ماجة (٤٢١٠) وأبو داود (٤٢٠٣) .
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) .
(٤) الفلق : ١ ـ ٥ .

اثنتين ، فقد روي عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال النبي ﷺ : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله تبارك وتعالى القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله تبارك وتعالى مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار** »[1] .

حسد أخوة يوسف ليوسف :

قيل : إن قولهم ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ محض الحسد ، والحسد من أمهات المفاسد لا سيما وقد أقدموا بسبب ذلك الحسد على :

١ ـ الكذب وهو خصلة مذمومة .
٢ ـ انتزاع يوسف من حضن الأب المشفق .
٣ ـ إلقاء يوسف في ذل العبودية .
٤ ـ إلقاء أبيهم في الحزن الدائم والأسف العظيم .

يقول الإمام الرازي : « واعلم أنه لما قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه : وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك »[2] .

والمعنى أنه لا علة لهذا الحسد إلا أن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخوه ولعل من الدروس المستفادة هنا : سيطرة الأب على عواطفه وضبطها بحيث يحدث التوازن المطلوب بين الأولاد ولا يعني ذلك تخطئة نبي الله يعقوب ذلك أن الأنبياء معصومون كما سنشير بعد ذلك .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ .

لقد حرك الحرج الذي يلاقونه ـ من جراء وجود صواع الملك في متاع بنيامين ـ كوامن حقدهم على أخي يوسف وعلى يوسف من قبله .

وصاحب الظلال لا ينظر إلى الروايات والتفاسير التي تبحث عن مصداق

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٣٦ ، ٨٨ ، ١٥٢ والبخاري (٧٠٢٥) (٧٠٢٩) .
(٢) الرازي : التفسير الكبير ٩٧ .

قولهم هذا وتبرره لأنهم كذبوا من قبل على أبيهم في يوسف وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تحرجهم وتبرؤوا من يوسف وأخيه السارق ، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه[1] .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عند قول يوسف لإخوته: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ قال: أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه في الجب ، ثم قلتم لأبيكم إن الذئب أكله وأنتم كاذبون ، ثم بعتموه بعشرين درهماً بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة .

لذلك ذهب البعض إلى أن هذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة[2] .

الكذب:

الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به . والجزاء واجب والجزاء من جنس العمل ، ذلك أنهم لما كذبوا على أبيهم ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ عاقبهم الله تعالى على ما فعلوا بأن أغفلهم عن تمزيق القميص حتى علم يعقوب كذبهم فيما قالوا .

يقول الإمام القرطبي : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها وهي سلامة القميص من التنييب ، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التمزيق ولما تأمل يعقوب ـ عليه السلام ـ القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم وقال لهم متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص[3] . ؟

ظهر كذبهم رغم أنهم ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ وكثير ما يفعل

---

(١) سيد قطب : الظلال جـ ٤ ص: ٢٠٢٢ .

(٢) الرازي : السابق ص: ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص: ٣٣٧٨ .

بعض الكذابين ، وروي أن امرأة جاءت إلى شريح تخاصم في شيء فجعلت تبكي فقالوا : يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ فقال قد جاء أخوة يوسف أباهم عشاء يبكون .

لما ظهر كذبهم ، قالوا : تعالوا نصطد ذئباً ونلطخه بالدم لعله يصدقنا ، فلما جاؤوا بالذئب مقيداً، قال لهم يعقوب أطلقوه فأطلقوه. . . ويعقوب يقول له : ادن ادن ، حتى ألصق خده بخده ، فقال له يعقوب أيها الذئب : لما فجعتني بولدي وأورثتني حزناً طويلاً ؟ ثم قال : اللهم أنطقه فأنطقه الله تعالى فقال: والذي اصطفاك نبياً ما أكلت لحمه ولا مزقت جلده ولا نتفت شعرة من شعراته ووالله ما لي بولدك عهد وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقد فلا أدري أحي هو أم ميت فاصطادني أولادك وأوثقوني وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا . . . وتالله لا أقمت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ، فأطلقه يعقوب وقال والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم ، هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه وأنتم ضيعتم أخاكم[1] . .

ولا يبعد إنطاق الله تعالى البهيم للنبي على وجه الإعجاز ولا غرابة في ذلك فالله يؤيد أنبياءه بما يشاء ، حتى روي أن مسيلمة الكذاب عندما ادعى النبوة وقال لأتباعه : أتفل في هذا البئر فيفيض ماؤه ، فلما فعل جعل الله تعالى حجته دليل كذبه ، فغارت ماء البئر حتى جفت .

وصدق الله العظيم ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[2] .

والكذب من علامات النفاق لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[3] .

وكما وضح مما سبق فإن الله تعالى لا يهدي الكاذب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[4] وجعل الله تعالى جزاء الكذابين العذاب في النار

(١) القرطبي : السابق .
(٢) فاطر : ٤٣ .
(٣) المنافقون : ١ .
(٤) غافر : ٢٨ .

﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾[1] ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾[2] .

ولقد قبح الله تعالى الكذب ولعن الكاذبين وجعل الكاذب أظلم الناس . قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾[3] أنه لا يفلح المجرمون وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[4] ووصفهم الله تعالى بالجرم والظلم لذلك تعقبهم الله تعالى فمنعهم الهدى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[5].

كما حذر الرسول ﷺ من الكذب وعواقبه فقال : « **إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار** »[6] .

وقال ﷺ : « **لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً** »[7] .

وقال ﷺ : « **ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر** »[8] .

تبين إذن أن الكذب حرام إلا أن هناك بعض الحالات يكون الكذب فيها مباحاً لما يترتب على الصدق فيها مفاسد ومضار ، فإن الكذب عند ذلك ليس

---

(١) طه : ٦١ .
(٢) الزمر : ٦٠ .
(٣) الأعراف : ٣٧ .
(٤) الصف : ٧ .
(٥) الزمر : ٣ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد : ١/ ٣ ، ٥ ، ٦ والبخاري (في الأدب المفرد ص: ٢١٣) .
(٧) أخرجه البخاري (٨/ ٣٠) وأحمد (١/ ٣٨٤) .
(٨) أخرجه مسلم (٢/ ١١٥) وأحمد (٢/ ١٨٠) .

مستقبحاً وقد حدد الرسول ﷺ هذه الحالات في الآتي :

١ ـ فيما يكون بين الزوجين ، كأن يقول الرجل لزوجه إني أحبك وهو غير ذلك أو تقول الزوجة لزوجها مثل ذلك ، فقد سأل رجل النبي ﷺ أكذب على أهلي ؟ قال : أعدها وأقول لها ، قال : « **لا جناح عليك** »[١] .

٢ ـ الإصلاح بين المتخاصمين لقوله ﷺ : « **ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً أو ينمي خيراً** »[٢] .

٣ ـ في حالة الحرب ، فليس من المعقول إذا أسر العدو من جيش المسلمين أن يصدقوه بل إن الكذب عليه واجب .

عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : (ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث إمرأته والمرأة تحدث زوجها)[٣] .

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من الكذب تحريماً وإجازة بعضه فإنه أجاز أيضاً استخدام التورية والكناية والتعريض فقد قال ﷺ : « **إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب** »[٤] .

ومن المعاريض التي أشار إليها الرسول ﷺ ما رواه أبو هريرة أن رسول الله قال : « **لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله : قوله : إني سقيم وقوله : بل فعله كبيرهم هذا وواحدة في شأن سارة** » .

فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم إنك امرأتي يغلبني عليك فإنه سألك فأخبريه أنك أختي فإنك

---

(١) الإحياء ص: ٢٥٨٩ وهو في الموطأ (تخريج العواقي) .
(٢) البخاري : الصلح باب ليس الكاذب مسلم .
(٣) رواه مسلم في البر باب تحريم الكذب .
(٤) مسلم (البر) باب تحريم الكذب ٣/٢٠١١ .
(التعريض خلاف التصريح والمعاريض التورية بالشيء عن الشيء والمعاريض جمع معراض من التعريض .

أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهله ، آتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لاينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتى بها فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها : ادعى الله أن يطلق يدي ، ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى فقال لها : ادعى الله أن يطلق يدي ، فلك الله ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها ، فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتيني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر .

قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها مهيم[1] ؟ قالت : « خيراً ، كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً »[2] .

معارض ثلاثة لجأ إليها أبو الأنبياء إبراهيم وإن سماها النبي ﷺ كذبات وهي مشروعة وإلا فالكذب محرم على الأنبياء لعصمتهم .

ولذلك قيل : في المعاريض مندوحة عن الكذب ، ولم يزل الأنبياء والأولياء يفزعون إليها كقول النبي ﷺ لمن سأله من أين أنت فقال : « **من الماء** » وقول إبراهيم عليه السلام : (إني سقيم) وقوله : (هذه أختي) وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) .

الصدق :

والكذب يقابله أو ضده الصدق ، والصدق من الفضائل الواجبة على الإنسان لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4] .

قلنا أن الكذب مما حرم على الأنبياء فهم صادقون فيما يقولون وما

---

(١) مهيم : ما شأنك وما خبرك ؟ .

(٢) مسلم : الفضائل باب فضائل إبراهيم الخليل ٤/ ١٨٤٠ .

(٣) الأحزاب : ٧٠ .

(٤) التوبة : ١١٩ .

يفعلون لذلك أثنى الله تعالى عليهم فقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(١) وقال : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾(٢) .

ولم يكن مدح الله تعالى وثناؤه وقف على الأنبياء فقط وإنما تعداه إلى الصادقين من المؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾(٣) وقال : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾(٤) .

وإذا كنا قد ألمحنا إلى أن بعض الكذب مباح فإننا نشير إلى أن بعض الصدق يكون مذموماً منهي عنه لما يترتب عليه من أذى وضرر وذلك كالغيبة والنميمة والسعاية .

أما الغيبة : فلا تصدر إلا عن حسد وغدر وقد نهى الله تعالى عنها بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾(٥) .

وذكرت الغيبة عند رسول الله ﷺ فقال : « **تدرون ما الغيبة** » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **ذكرك أخاك مما ليس فيه** » ، قال : ـ أي السائل ـ أرأيت أن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته** »(٦) .

أما النميمة : فهي أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً وهذا الخلق قبيح جداً لأن في ذلك إيقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه .

---

(١) مريم : ٥٦ .
(٢) مريم : ٥٤ .
(٣) البقرة : ١٧٧ .
(٤) الأحزاب : ٢٣ .
(٥) الحجرات : ١٢ .
(٦) مجمع الزوائد ٨/٩٤ .

قال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة فتان**»[1] .

وقال : « **ألا أخبركم بشراركم** » ؟ قالوا بلى : قال :«**المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون البراء العنت** »[2] النميمة تفضى إلى التقاطع بين المتواصلين والتباعد بين المتقاربين والتباغض بين المتحابين .

أما السعاية :

فقد روى ابن قتيبة أن النبي ﷺ قال : « **الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع** » الديوث هو الذي يجمع بين الرجال والنساء والقلاع هو الساعي الذي يوقع بالناس عند الأمراء أو الرؤساء حتى يقلعهم وقد قال بعض الحكماء : الساعي بين منزلتين قبيحتين : إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة وإما أن يكون كذب فقد خالف المروءة[3] .

وهذه الأمور حتى وإن كانت صدقاً إلا أنها من قبيل الرذائل لما يترتب عليها من أضرار أكثر بكثير من الكذب فيها .

---

(١) أخرجه البخاري : (٦٥٦) ومسلم (١٠٥) وأحمد (٥/٣٨٩) والفتان : (النمام) .
(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٥٩) وابن ماجه (٤١١٩) .
(٣) الماوردي : أدب الدنيا والدين ص: ٢٤٠ .

الفصل الثالث

«عصمة يوسف»

أنبياء الله ورسله هم الصفوة الممتازة الذين اصطفاهم الله تعالى من بين البشر وإختصهم بصفات الكمال الخلقية والخلقية وجعلهم السفراء الأمناء في حمل الشرع وتبليغه إلى الناس ، لذلك ذهب أهل السنة ـ والفرق الإسلامية ـ إلى أنه لا يجوز على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في الخلقة والأخلاق ما ينفر كما لا يجوز ذلك في الأفعال .

النبوة تناقض الكذب على الله والنبي لا يكون إلا أميناً صادقاً لأن الصدق إذا كان صفة ضرورية للبشر فهي للرسل ألزم ، ولو جاز وقوع الكذب من الأنبياء لما أمكن الثقة فيما ينقلونه من أخبار وهم قدوة للناس والتأسي بهم واجب « وذلك لا يجوز إلا من تجويز كون الأفعال غير ذنوب »[1] .

معنى العصمة :

العصمة في اللغة هي المنع ، عصمة الله عبد، أي عصمه مما يوبقه ، وعصمه يعصمه عصماً ، منعه ووقاه وفي التنزيل : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾[2] أي لا معصوم إلا من رحم وفي قوله تعالى :﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾[3] أي يمنعني من الماء[4] .

---

(١) ابن تيمية : الفتاوي الكبرى جـ ٢ ص: ٣٣٧ دار المعرفة بيروت ١٣٨٥ هـ .
(٢) هود : ٤٣ .
(٣) هود : ٤٣ .
(٤) ابن منظور : لسان العرب جـ ٣٣ ص: ٢٩٧٦ ـ ٢٩٧٩ .

أما يوسف ـ عليه السلام ـ فإنه حين راودته إمرأة العزيز : « فاستعصم » أي تأبى عليها ولم يجبها إلى ما طلبت . ونلقي بعض الضوء على هذه الواقعة .

ورد في حق يوسف الصديق أن إمرأة العزيز همت بارتكاب الفاحشة معه وهم هو بنفس الشيء ، فقيل : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم المعصية وقصد إليها مع منافاة ذلك للقول بعصمة الأنبياء ؟ .

يقص القرآن الكريم هذا الحادث فيقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1] .

أولاً : نأتي على معنى الهم وهو في اللغة له معاني أربعة :

الأول : العزم على الفعل لقوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾[2] أي أرادوا ذلك وعزموا عليه .

الثاني : ورود الشيء بالبال . قال تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ ﴾[3] أراد الله تعالى أن الفشل خطر ببالهم ولو كان المراد العزم لما صح أن يكون الله ولياً لهم . لأن العزم على المعصية معصية .

الثالث : يستعمل بمعنى المقاربة ، يقولون : هم بكذا أي كاد أن يفعله . قيل :

أقول لمسعود بجرعاء مالك ... وقد هم دمعي أن يلج أوائله

---

(١) يوسف : ٢٤ .
(٢) المائدة : ١١ .
(٣) آل عمران : ١٢٢ .

والدمع لا يجوز عليها العزم وإنما أراد أنه كاد أو قارب .

الرابع : الشهوة وميل الطباع[1] .

هذا عن معنى الهم أما الآية التي نحن بصددها فقد اختلف في تأويلها على وجوه :

الأول : إذا حمل الهم في الآية على العزم فيجب تعليقه بغير القبيح كأن يكون هم بضربها أو دفعها عن نفسه[2] فكأنه قال : ولقد همت بالفاحشة منه وأرادت ذلك وهم يوسف بضربها ودفعها عن نفسه كما يقال : همت بفلان أي بضربه ويكون البرهان الذي أراه الله أنه إن أقدم على ما هم به أهلكه أهلها . . . ـ فأخبر عنه سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء اللذين هما القتل وظن اقتراف الفاحشة .

ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين فأخبر تعالى : أنه صرف عنه السوء والفحشاء وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء[3] .

الثاني : أن في الآية تقديم وتأخير والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] وأيضاً فلو لم يجعل التقديم على (لولا) جواباً لها لكان جواباً محذوفاً وإذا دار الأمر بين أن يكون جواباً محذوفا وبين أن يكون متقدماً عليه لا شك أن التقديم أولى[5] كقولهم قد كنت هلكت لولا أن تداركتك .

وإذا جاز أن يكون في الآية تقديم وتأخير ـ كما ذهب الرازي ـ فإن ذلك يكون خير علاج لبلبة المدارك تجاه هذه القضية لأن التقديم والتأخير من

---

(١) الرازي : عصمة الأنبياء ص: ٧٦ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص: ٤٧٤ .
(٣) ابن تيمية : الفتاوي الكبرى جـ ٢ ص: ٣٣٩ .
(٤) القصص : ١٠ .
(٥) الرازي : السابق .

معانيه : أن لم يقع أصلاً في نفسه ويكون تقديم الآية ـ والله تعالى أعلم ـ ولولا أن رأى برهان ربه لقد هم بها أي أن الهم كان خليقاً أن يثور في نفسه لو لم يره الله برهانه ، أما وقد رأى هذا البرهان فقد كان ذلك عاصماً له من الهم .

الثالث : هم يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن هم إصرار بل هم خطرات النفس أي ما يمر سريعاً على نفس الإنسان .

قال الإمام أحمد : الهم ، همان : هم خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة** » .

ويوسف هم هما تركه لله تعالى ، لذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه وذلك إنما يكون إذا قام المقتضى للذنب وهو الهم وعارضه الإخلاص والموجب لإنصراف القلب عن الذنب لله ، فيوسف لم يصدر عنه إلا حسنة يثاب عليها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] .

وأما ما ينقل من أنه حل سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده ، وأمثال ذلك كله مما لم يخبر الله به ولا رسوله وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ من اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم[2] .

هذا فضلاً عن اعتراف إمرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة اللائي اعترفن أيضاً بعصمته ونزاهته ، فقد حمل الإمام ابن تيمية قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .

(٢) ابن تيمية : السابق .

حمله على أنه من كلام المرأة لا من كلام يوسف لأنه على نسق الكلام المحكي عنها في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ فالمكنى عنه في قولها (لم أخنه) هو يوسف دون زوجها إذ يوسف غائب في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه أما زوجها فقد خانته في الحقيقة بالغيب .

براءة يوسف دلالة عصمته :

لما غلقت المرأة الأبواب ، فتح الله تعالى عليه باب الحفظ والعصمة ، وأنه لما حفظ حرمة زوجها الذي أكرم مثواه ، أكرمه الله تعالى بالعصمة حتى لا يقع في المعصية .

ولقد شهد براءة يوسف كل من له صلة بتلك الواقعة من زوج وحاكم ونسوة وملك وادعى يوسف ذلك واعترف له خصمه بصدق ما قاله مرتين وشهد بذلك رب العالمين الذي هو أصدق القائلين كما اعترف إبليس ببراءة يوسف .

أما شهادة الزوج ،فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

(يوسف أعرض عن هذا) واكتمه ولا تتحدث به فقد ظهر صدقك وطهارة ثوبك (واستغفري لذنبك) الذي صدر عنك وثبت عليك (إنك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) أي من المتعمدين للذنب[1] .

وأما شهادة الحاكم[2] فقوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ أي من خلف القميص (فكذبت) في دعواها (وهو من الصادقين) في دعواه .

---

(١) الألوسي : روح المعاني ص: ٢٢٤ .

(٢) (وشهد شاهد من أهلها) يقال إنه رجل حكيم من أهلها ذو رأي يأخذ الملك برأيه ويستشيره أو هو طفل رضيع ونقصد بشهادة الحاكم ذلك الحكيم صاحب الرأي السديد .

وقيل إن الشاهد المذكور أن كان صبياً أنطقه الله تعالى في المهد كما ورد في بعض الأحاديث ـ فالآية الشاهدة ببراءة يوسف في مجرد كلامه قبل أوانه حتى لو قال : صدق يوسف وكذبت لكفى برهاناً على صدقه[1] كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد برهاناً على صدق مريم .

وقيل : أنها لما لم تتمكن من مرادها من يوسف خرقت قميصه ليكون لها حجة عليه ، ولكن الله تعالى قلب الأمر ضدها حتى صار حجة عليها وليوسف دلالة صدق . . . ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[2] .

أما شهادة النسوة فقولهن : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ إن الله تعالى دفع عنه التهمة ورفع عنه المظنة فأنطق عزاله .

« قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾تنزيهاً له وتعجباً من نزاهته وعفته .

وأما شهادة الملك ، فقوله : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ نافذ القول لا تخاف غدراً[3] وقيل : مؤتمن على كل شيء وقوله تعالى : ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب[4] ، وليس ذلك إلا لظهور برائته مما نسب إليه .

وأما ادعاء يوسف ـ عليه السلام ـ فقوله : ﴿ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ إن يوسف صرح بالأمر ولو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح فإن الخائن خائف[5] كما أنهم رأوا المرأة في أكمل زينتها .

وقوله : « رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ أي أن دخول السجن أسهل علي وأهون من الوقوع في معصية الزنى التي يدعونني إليها .

---

(١) الألوسي : السابق : ص: ٢٢٢ .
(٢) فاطر : ٤٣ .
(٣) القرطبي : الجامع ص: ٣٤٤١ .
(٤) الرازي : السابق : ص: ١٦٢ . ١٢٦ .
(٥) القرطبي : السابق : ص: ٣٤١٣ .

وقيل أن الله تعالى أوحى إليه : يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إلي ولو قلت : العافية أحب إلي لعوفيت .

وأما اعتراف الخصم ، فقول المرأة للنسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ .

وهذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف علي السلام كان مبرأ عن كل الذنوب مطهراً عن جميع العيوب[1] .

شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه لا تبالي المرأة من ورائها مما يلم بها[2] وقيل في طهارة يوسف ونزاهته وبراءته من الذنوب المنسوبة إليه : إن الملك لما أرسل إلى يوسف وطلبه فلو كان يوسف مذنباً بفعل قبيح وكان قد صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة لأن ذلك يكون سعياً منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي اندرست وخفيت والعاقل لا يفعل ذلك .

أما شهادة رب العالمين ، فقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

صرف الله تعالى عنه (الهم) الذي لم يكن زلة وإنما (هم) دفعها عن نفسه فصرف عنه لئلا يقتلها فيقتلوه كما هم موسى عليه السلام ووكز الرجل فقضى عليه وأرادوا قتله .

أو صرف عنه : خيانة السيد (الزوج)(والفحشاء) من الزنا﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصوا دينهم لله لأنه كان مخلصاً في طاعة الله تعالى مستخلصاً لرسالة الله تعالى[3] .

أما اعتراف إبليس ببراءته ونزاهته فقوله تعالى حكاية عنه :﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۙ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[4] .

---

(١) الرازي : السابق : ص: ١٥٦ .
(٢) سيد قطب : الظلال السابق : ص: ١٩٩٤ .
(٣) القرطبي : السابق : ص: ٣٣٩٩ .
(٤) الحجر : ٤٠ .

الشيطان يغوي الكل إلا المخلصين من عباد الله تعالى ويوسف عليه السلام من عباد الله المخلصين ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

وشهادة هؤلاء إنما هي موجهة إلى هؤلاء الذين نسبوا إلى يوسف هذه الفضيحة ، فهم إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده ، فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته[1] .

فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات في براءة يوسف عن الذنوب وما نسب إليه .

لقد بشر الله تعالى عباده المتقين بشارات عديدة منها :

١ ـ البشرى بالعون والنصرة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[2] .

٢ ـ تصريف الغم والمحنة والخروج منهما ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[3] .

٣ ـ النجاة من العذاب والعقوبة ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[4] .

٤ ـ نيل الجزاء بالمحنة ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5] .

٥ ـ الأمن من الفزع والمصائب ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾[6] .

٦ ـ زوال الخوف والحزن ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[7] .

---

(١) الرازي : السابق : ص: ١١٩ .
(٢) النحل : ١٢٨ .
(٣)الطلاق : ٢ .
(٤) مريم : ٧٢ .
(٥) يوسف : ٩٠ .
(٦) الدخان : ٥١ .
(٧) الأعراف : ٣٥ .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] قال العلامة الفيروز أبادي :« يفهم منها أنه لو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجل في العبودية وأعظم في القدر ، وأولى في الحال ، وأنجح في المآل من هذه الخصلة لكان الله تعالى أمر بها عباده ، وأوصى خواصه بذلك ، لكمال حكمته ورحمته .

فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الأولين والآخرين - ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[2] - من عباده واقتصر عليها : علمنا أنها الغاية التي لا متجاوز عنها ، ولا مقتصر دونها .

وأنه عز وجل قد جمع كل محض نصح ودلالة وإرشاد وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] يشعر بأن الأمر كله راجع إلى التقوى[4] .

الاستعانة بالله وحده :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ ﴾ .

قال يوسف وهو قائم على صخرة بالجب : يا أخوتاه إن لكل ميت وصية فاسمعوا وصيتي ، قالوا : وما هي ؟ قال : إذا اجتمعتم كلكم فآنس بعضكم بعضاً فاذكروا وحشتي ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي ، وإذا شربتم فاذكروا عطشي ، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتي ، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابي ، فقال له جبريل :

يا يوسف : كف عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله بمكان .

---

(١) البقرة : ١٩٧ .
(٢) النساء : ١٣١ .
(٣) المائدة : ٢٧ .
(٤) الفيروز آبادي : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز جـ ٢ ص: ١١٦ .
رسالة المسترشدين الحارث المحاسبي . ص: ١٦٢ هامش بقلم المحقق (الأستاذ عبد الفتاح أبو عزة) . مطابع دار السلام ١٩٨٥ م .

ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كل غريب ، ويا صاحب كل وحيد ويا ملجأ كل خائف ، ويا كاشف كل كربة ويا عالم كل نجوى ويا منتهى كل شكوى ويا حاضر كل ملأ ويا حي يا قيوم أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً إنك على كل شيء قدير . . . رددها يوسف في ليلته مراراً فأخرجه الله تعالى في صبيحة يومه ذلك من الجب[1] .

وعن ابن عمر قال : قال رسول ﷺ : « **لما ألقى يوسف في الجب أتاه جبريل عليه السلام فقال : يا غلام من ألقاك في هذا الجب ؟ قال إخوتي ، قال : ولم ؟ قال : لمودة أبي إياي حسدوني ، قال : تريد الخروج من ها هنا ؟ قال : ذاك إلى إله يعقوب ، قال :**

قل : اللهم إني أسألك باسمك المكنون المخزون يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لي وترحمني وأن تجعل من أمري فرجاً ومخرجاً وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب ، وقالها فجعل الله تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب » .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : : « **ألظوا[2] بهؤلاء الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار** »[3] .

ويوسف في قوله لجبريل : ذاك إلى إله يعقوب مقتدياً بجده إبراهيم عليه السلام ، فقد روي أنه حين وضع في المنجنيق ليرمى إلى النار جاءه جبريل وقال : هل لك من حاجة ، فقال أما إليك فلا .

وإذا كان الأنبياء بحاجة إلى الاستعانة بالله تعالى فإن البشر أشد حاجة إلى إعانة الله تعالى لهم ، لذلك جاءت الآيات مقترنة الصبر التوكل ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) القرطبي : الجامع ص: ٣٣٧٣ ، ٣٣٧٤ .
(٢) ألظ المطر ، وألظ بالمكان : أقام ومن المجاز « الظوا بياذا الجلال والإكرام » ألزموه .
(٣) الألوسي : السابق : جـ ١٢ ص: ١٩٧ ، ١٩٨ .

﴿ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] ، وقوله تعالى على ألسنة رسله فقال : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[2] .

ولكن قد يقال ، أليس في قوله : ﴿ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ دلالة على لجوئه إلى غير الله وطلب الاستعانة من غير الله ؟

قال يوسف ـ عليه السلام ـ للرجل ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي عند الملك ، والمعنى اذكر عنده أني مظلوم من جهة أخوتي لما أخرجوني وباعوني ثم إني مظلوم في تلك الواقعة التي لأجلها حبست .

وقوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ يكون المعنى ـ عند الذين يرجعون الضمير إلى يوسف ـ أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه . . . وأن مصلحته كانت في أن لا يرجع في تلك الواقعة إلى أحد من المخلوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله فلما رجع يوسف إلى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بأن الشيطان أنساه ذلك التفويض . .

والمعنى : أنه لما عدل عن الانقطاع إلى ربه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السجن بضع سنين أو لأنه نسي تعليق ذلك بالمشيئة فلم يقل : إن شاء الله .

وهنا يقول الإمام الرازي : واعلم بأن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب[3] .

والاستعانة بالبشر في دفع الظلم جائزة في الشريعة لا إنكار على المستعين فيها .

---

(١) النحل : ٤٢ .
(٢) إبراهيم : ١٢ .
(٣) الرازي : السابق : ص: ١٤٨ .

لذلك ذهب الإمام الألوسي إلى : أن الاستعانة بالعباد في كشف الشدائد مما لا بأس به[1] فقد قال سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [2] .

فضلاً عن أن بعض العلماء ذهب إلى أن ضمير ـ أنساه ـ عائد على الساقي أي على الرجل الذي ظن أنه ناج .

لا دافع لقضاء الله :

من أعظم الفوائد في قصة يوسف عليه السلام أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدره تعالى وأنه سبحانه إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة ولو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه .

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي أرادوا أن يكون يوسف في الجب وأراد الله ـ سبحانه ـ أن يكون يوسف على سرير الملك فكان ما أراد الله ، والله غالب على أمره .

وأرادوا أن يكون يوسف عبداً لمن ابتاعوه من السيارة وأراد الله تعالى أن يكون عزيز مصر ، وكان ما أراد الله .

ويقال : العبرة لا ترى من الحق في الحال وإنما الاعتبار ربما يظهر في سر تقديره في المآل .

يقول الإمام القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الهاء راجعه إلى الله تعالى ، أي لا يغلب الله شيء بل هو الغالب على أمر نفسه فيما يريده أن يقول له كن فيكون .

وقيل : الهاء ترجع إلى يوسف أي الله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كائد .

وقيل : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤيا على إخوته فغلب أمر الله حتى قص .

---

(١) الألوسي : السابق : ص: ٢٤٨ .
(٢) المائدة : ٢ .

ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكاً وسجدوا بين يديه .

ثم أراد الأخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة فقال : ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ .

ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين ، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذئب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة وقالوا لأبيهم : ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ .

ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم ينخدع وقال : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » .

ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه .

ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن إبتدرته بالكلام غلبته فغلب أمر الله حتى قال العزيز : ﴿ ٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴾.

ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي فغلب أمر الله فنسي الساقي ولبث في السجن بضع سنين[1] .

وقيل : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص .

ولا يعني ما سبق أننا لا نأخذ بالأسباب ، وإنما علينا أن نفوض الأمر إلى الله تعالى في تدبيره مع الأخذ بالأسباب التي أمرنا بها ثم نفوض الأمر إليه سبحانه في عاقبة ما يعتبره لنا من عطاء أو حرمان فإنه أرحم بنا من أنفسنا وأعلم بما ينفعنا ويضرنا وقد قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

---

(١) القرطبي : الجامع ص: ٣٣٨٩ ـ ٣٣٩٠ .
(٢) البقرة : ٢١٦ .

فائدة : حول حرية الإرادة الإنسانية :

تضاربت الآراء واختلفت المذاهب بشأن حرية الإدارة الإنسانية أو بمعنى أوضح حول أفعال الإنسان : هل الإنسان فاعل مختار فيما يأتي ويذر من أفعال ، أم أنه مجبر كالريشة المعلقة في الهواء تحركها الرياح أنى تشاء ؟ .

ذهب بعض المسلمين إلى أن أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم ، وأن الله عز وجل أقدرهم على ذلك ولا فاعل لها ولا محدث سواهم .

وفي هذا القول انتقاص من قدرة الله تعالى لأنه خالق كل شيء . وذهب البعض الآخر ـ وهم الجبرية ـ إلى القول بالجبر المطلق ويبدو ذلك أيضاً متعارضاً مع مسؤولية المطيع أو المذنب .

وبمقتضى المذهب الجبري يكون العبد مجبوراً مقهوراً والمجبور لا يثاب ولا يعاقب ولكنه في الحقيقة يثاب ويعاقب : إذن العبد غير مجبور ولا مقهور .

وفي مجال الرد على الجبرية نقول : لو قضى الله تعالى على عبد بمعصية لا يقدر على غيرها وقضى على آخرين بطاعة له لا يقدرون على غيرها فما الحكمة إذن من إرسال الرسل ؟ هل أرسلهم الله تعالى إلى من لا يقدرون على شيء مما يدعونهم إليه ؟ .

يقول الإمام ابن تيمية وهو يدفع مذهب الجبر : إذا كان أحدهم ـ أحد الجبرية ـ مشاهداً للقدر من غير تمييز بين المأمور والمحظور فعومل بموجب ذلك مثل أن يضرب وأن يجاع حتى يبتلى بعظيم الآلام والأوجاع فإن لام من فعل ذلك به فقد نقض قوله وقيل له : هذا الذي فعله مقضى مقدور[1] .

فلو استسلم العبد لقدر الجوع ـ مثلاً ـ مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات ، مات عاصياً والقرآن الكريم يؤيد هذا حين رد على من يعتذر عن أخطائه بالأقدار وأنه مقهور مردداً قول المشركين عندما نفرهم الرسول ﷺ من

---

(١) الرسالة التدمرية ص: ٧٠ .

عبادة الأصنام وقالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[1] .

إن تجاهل الإنسان لما زوده الله تعالى به من قوة وتذكير وما ركب في طبيعته من استعداد للرفعة والضعة وما وهبه من حرية يتوجه بها إلى الخير أو إلى الشر دون ضغط أو ظلم .

إن هذا التجاهل لا ينقص من مسؤولية العبد عن أفعاله وما يصدر عنه من سلوك .

أما الإمام ابن القيم فإنه نظر إلى الموضوع ـ الإرادة الإنسانية وحريتها ـ نظرة أكثر دقة إذ رأى أن إرادة الله تعالى تكون على وجهين أحدهما إرادة حتم والأخرى إرادة أمر معها تمكن وتفويض[2] .

والمعنى : أن الأمر الإلهي إذا تعلق بالخلق والإيجاد من لا شيء كخلق السموات والأرض وكل ما هو غير مقدور للإنسان فإن الأمر حتمي لا تقع له مخالفة بحال أما إذا تعلق الأمر بما هو في مقدور الإنسان وفي نطاق قدرته فإنه ـ أي الأمر ـ قد تقع مخالفة له لأنه أمر توجيه مع تمكن الإنسان واختيار منه ومثاله في القرآن : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ (فصلت ٤٠) أي أنكم أحرار مختارون .

ومثال إرادة الحتم ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الإنسان ٣٠) .

وما ذهب إليه الإمام ابن القيم هو إحقاق للحق فلا جور على حرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله كما ذهب الجبرية ولا انتقاص من القدرة الإلهية كما ذهب المعتزلة .

يقول الإمام في (شفاء العليل) : « العبد بجملته مخلوق لله ، جسمه وروحه ، وصفاته وأحواله فهو مخلوق من جميع الوجوه وخلق على نشأة وصفة يمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته وتكوينه فهو

---

(١) الزخرف : ٢٠ .

(٢) ابن القيم : شفاء العليل ص: ١٠٥ ، ١٠٦ ، مختصر الصواعق المرسلة ص: ٢٣٢ .

الذي خلقه وكونه كذلك وهو ـ أي الإنسان ـ لم يجعل نفسه كذلك بل خالقه وبارئه لإرادته وأفعاله وبذلك أمره ونهاه وأقام عليه حجته وعرضه للثواب والعقاب فأمره بما هو متمكن من إحداثه ونهاه عما هو متمكن من تركه ورتب ثوابه وعقابه هذه الأفعال والتروك التي مكنه منها وأقدره عليها وناطها به .

فالرب سبحانه أعطاه مشيئة وقدرة وعرفه ما ينفعه وما يضره وأمره أن يجري مشيئته وقدرته في الطريق الذي يصل به إلى غاية صلاحه[1] .

الإنسان إذن حر مختار في إطار الإرادة الإلهية الدينية مجبر في إطار الإرادة الكونية وهذا التمييز بين ما هو كوني وما هو شرعي يحل مشكلة الاضطراب التي وقع فيها كل من الجبرية والمعتزلة فضلاً عن أنه اعتراف بالسنن والقوانين الكونية ولا شك أنها حقائق علمية ولا شك أن هذا التمييز حل مشكلة الجبر والاختيار .

إننا نحسن باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع في دائرتهما وقد كان يكفي هذا الإحساس دليلاً على حرية الإنسان وإرادته لولا أن هناك من يكذب الإحساس أحياناً .

وليس لأحد أن يقول : كيف يتفق القول بحرية الإرادة الإنسانية والقول بأن أعمالنا لا تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل ؟ .

علم الله تعالى ، كالمرآة المجلوة ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا نظر فيها إنسان ما فإنها ستعكس صورته تماماً بكل الصدق إذا كان عابساً مقطب الجبين فأي ذنب تتحمله المرآة حينئذ ؟ إن مهمتها الوصف والكشف وقد قامت بها .

ولو كان الناظر فيها ضاحكاً مبتسماً لأثبتت ذلك على صفحتها كذلك الأمر فيما يتصل بالعلم الإلهي ، فإنه لا يتصل بأعمال الإنسان اتصال إلجاء وتحميل ، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح.

إن المحتجين بالقدر في ارتكابهم الذنوب هم من جنس المشركين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا

---

(١) شفاء العليل : ص: ١١٠ .

﴿ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾[1] .

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ ليس فيها مصادرة على حرية الإنسان للأخذ بالأسباب .

حكمة الداعي إلى الله :

الداعي إلى الله تعالى هو الذي يصلح حياته لصالح هذه الدعوة أي أنه مطالب قبل كل شيء أن يصلح نفسه ثم يدعو غيره ، والدعوة بالقدوة خير منها بالكلمة ففاقد الشيء لا يعطيه .

نقول هذا لأن الداعي ما أن يشرع في دعوته إلا وترتفع إليه العيون الناقدة من كل صوب ، فإذا كان في حياته أيسر شيء يتنافى مع دعوته وعقيدته فإن هؤلاء المحاسبين المتطوعين يثيرون عليه الضجة . . . والداعي إذا كان قد آمن بدعوته صدقاً وإخلاصاً فإنه لن يضيق صدراً بما يوجه إليه من سهام نقد واعتراض ولن يحاول أن يستر عنهم خطأإذا وجده في أعماله ولكنه سيستفيد من نقدهم وجهودهم .

والداعي بطبيعة مهمته يمر عليه من الظروف القاسية ما يكاد يكسر قلبه ويقعد بهمته عن المضي في دعوته لولا تثبيت الله تعالى له .

وطريق الدعاة إلى الله تعالى هو الذي دعا إليه ربنا تعالى في كتابه الكريم : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2] .

والمقصود أن يعرضوا الناس ـ قبل كل شيء ـ على مبادىء الدين الأساسية ثم يدعوهم إلى مطالبه ومقتضياته ولوازمه شيئاً فشيئاً فلا يقدموا الفروع على الأصول والأحكام الجزئية على الكليات والقواعد الشاملة وأن لا يقابلوا الغافلين والواقعين في الضلال الاعتقادي والعملي بالكراهية والاحتقار

---

(١) الأنعام : ١٤٨ .

(٢) النحل : ١٢٥ .

والإزدراء بل عليهم أن يوجهوا فكرهم إلى علاجهم ومواساتهم وبذل النصيحة لهم بمثل ما يعامل الطبيب مريضه وأن يروضوا أنفسهم على الدعاء والنصيحة لمن يتهكمون بهم وينالون من كرامتهم ويستخفون بدعوتهم عن قلة فهمهم وأن يزرعوا أنفسهم بالصبر على ما يصيبهم من إيذاء الناس واستهزائهم وظلمهم .

التزم يوسف عليه السلام المنهج الإلهي في الدعوة إلى الله التزمه في خاصة نفسه حين صبر ولم ييأس ولم يجزع ولم يقنط من رحمة الله تعالى التزمه في خاصة نفسه حين التزم الصدق والأمانة في بيت الرجل الذي أكرمه وأحسن مثواه وراودته المرأة فتأبى عليها خوفاً من علام الغيوب ثم أداء للأمانة . التزمه حين كظم غيظه وعفا عن إخوته وهم الذين فعلوا معه ما رأينا فيما سبق .

التزمه حين دخل السجن ـ ظلماً ـ صابراً محتسباً ولم تشغله مصيبته عن دعوته إلى عقيدة التوحيد .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

رغم ظهور براءة يوسف عند العزيز ووضوح البراهين الدالة على ذلك ، من قدِّ القميص من الدبر وشهادة الشاهد وتقطيع النسوة أيديهن، نقول رغم هذا رأوا في سجنه كتمان لفضيحة المرأة الملكة أو سيدة القصر .

لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم أي لا أمل لهم في الخروج من محبسهم هذا واشتد بلاؤهم ولم ينس يوسف أنه قبل أن يكون مسجوناً مقهوراً فإنه داع إلى التوحيد فجعل يقول لهم : إصبروا وأبشروا تؤجروا .

لم يبدأ يوسف بتكفيرهم ـ وهم كفار حقيقة ـ ولم يبدأ بتجهيلهم ـ وإن كانوا جهلة حقيقة ـ وإنما بذر بذور الأمل والرجاء وبشرهم بالأجر .

---

(١) يوسف : ٣٦ .

فقالوا له : يـا فتى ما أحسن حديثك لقد بورك أنا في جوارك من أنت يا فتى؟ يقول ابن عباس: . . كان يعزي فيه ـ في السجن ـ الحزين ويعود فيه المريض ويداوي فيه الجريح ، ويصل الليل كله ويبكي حتى تبكي معه جدر البيوت وسقفها وظهر به السجن واستأنس به أهل السجن فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف وأحبه صـاحب السجن فوسع عليه فيه[1] .

يقول له صاحب السجن : يا يوسف ، لقد أحببتك حباً لم أحب شيئاً حبك .

فقال له يوسف : أعوذ بالله من حبك ، قال : ولم ذلك قال : أحبني أبي ففعل بي أخوتي ما فعلوه وأحبتني سيدتي فنزل بي ما ترى .

ولما كان يوسف شديـد المواظبـةُ على الطاعـات من الصوم والصـلاة ـ بالإضافة إلى أخلاقه الطيبة ـ قالوا : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ .

كسب يوسف ثقة المسجونين حين عاملهم باللين والرقة والرحمة حتى إذا ما ألقى إليهم بأمر دينه وعقيدته وجد نفوساً مهيئة وقلوباً متفتحة وآذاناً صاغية .

أما الفتيان . . . ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ : إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة فكونـه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة القائمـة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولـون خصائص الربوبية . .

يطمئن يوسف صاحب السجن إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ، لأن ربه علمه علماً لدنيا خاصاً ، جزاء على تجرده لعبادته وحده وتخلصه من عبادة الشركاء

(١) القرطبي : الجامع ص: ٣٣١٧ .

هو وآباؤه من قبل ، وبذلك كسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى ، كما كسب ثقة السجناء بأخلاقه العملية .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس ، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف (٢) .

ومعنى كلام يوسف ـ فيما يرى الإمام القرطبي ـ : أن الله تعالى خص يوسف من علم الغيب ، فبين يوسف أن الله ماخصه بهذا العلم إلا لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ـ يعني دين الملك ـ . . العلم بتأويل رؤياكما والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا . . . . ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام وإنه إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام وجعل المعجزة التي يستدلان بها ، إخبارهما بالغيوب (٣) .

والدرس المستفاد هنا : أن يوسف أراد أن يعرض عليهما التوحيد ويزينه

---

(١) يوسف : ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) سيد قطب : الظلال جـ ٤ ص: ١٩٨٨ .
(٣) القرطبي : السابق : ص: ٣٤١٧ ، ٣٤٢٠ .

لهما ويقبح لهما الشرك بالله تعالى قبل أن يجيبهما عما سألاه من تعبير رؤياهما ثم يجيبهما عن ذلك .

وهذه طريقة سديدة على كل ذي عقل أن يسلكها مع الجهلة والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الإرشاد والنصيحة أولاً ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجبه عليه مما استفتي فيه ثم يفتيه .

ولما قال يوسف : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ وصف نفسه أولا بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالمغيبات فإن الأخبار بالغيب يناسب ما سألاه من تأويل رؤياهما .

ومنه يستفاد أن للعالم أن يصف نفسه بما فيها من محامد يقتنع به وأن ذلك لا يحرم ولا يعد من التزكية المحظورة .

يقول صاحب (الكشاف) « وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين ـ لم يكن من باب التزكية[1] .

أبان يوسف عن مقصوده : أن الحكم لا يكون إلا لله وحده وأنه أمر ألاَّ نعبد سواه وأن تلك الأصنام ـ الحجرية والبشرية ـ لا تنفع ولا تضر ، الله تعالى قاهر وهي مقهورة . . أبان عن عقيدته وهذا غايته في الدرس الذي ألقاه في السجن .

ثم هو في نهاية الدرس عاد إلى الجواب عن السؤال الذي ذكراه، ذلك أن التثبت في الجواب دون التسرع من أمارات أهل الفضل والمكارم ، كيوسف وعدهما أن يجيبهما ولم يسرع بالإجابة .

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ ﴾ .

وفي كياسة الداعي وفطنته وعلى وزن : ما بال أقوام تكنية دون تسمية : لم يعين يوسف من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيء تلطفاً

---

(١) الزمخشري : الكشاف جـ ٢ ص: ٤٧٠ دار الريان للتراث .

وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء[1] .

إن الداعي إلى الله ـ بل كل مسلم ـ يحتاج إلى الجهد المستمر مع الصبر على الشدائد والثبات في المصاعب ، ولكن ينبغي أن لا يشرع في هذا الصراع والجهاد إلا بالعقلية التي يعالج بها الطبيب مريضه فإنه في الحقيقة لا يحارب المريض وإنما يحارب ما فيه من أمراض .

وأن يكون كل حبه وبغضه وعطائه ومنعه لوجه الله « **من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان** »[2] .

الدروس المستفادة :

في سورة يوسف ـ كما مر بنا ـ دروس وعظات وعبر للدعاة وغيرهم لعلنا نجملها في الآتي :

١ ـ الثقة في الله تعالى :

الإيمان بالله تعالى والثقة أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً والصبر على الابتلاءات واليقين بنصر الله تعالى فما أن صَبَرَ يَعقوب ـ عليه السلام ـ بل إن صبره كان الصبر الجميل « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

نقول : ما أن تذرع بالصبر إلا وكان الله تعالى وعنايته بأن فرج كربه ورد عليه ولديه وجمع بين الجميع .

الدعاة إلى الله لا يتعجلون قطف الثمار ، ولا يتبرمون من الابتلاءات . وهل يكون تمكن إلا ويسبقه صبر .

٢ ـ التوكل على الله لا يضاد الأخذ بالأسباب :

الله تعالى هو المقدر وهو مسبب الأسباب والقدر من الله لا ينفي أن يأخذ الإنسان بالإسباب ، يتجلى في قول يعقوب لأبنائه : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ ومع هذا كله يلفتنا يعقوب إلى عموم القدرة الإلهية

---

(١) سيد قطب : الظلال ص: ١٩٩٢ . (٢) رواه أبو داود بسند صحيح .

والقدر الإلهي بقوله : ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] .

٣ ـ المحنة لا تمنع الداعي من الدعوة :

رغم محنة السجن ـ ظلماً وجوراً ـ فإن يوسف انتهز سؤال السجينين ليبين لهما متسائلاً : هل الشرك وما فيه من تناقض والأرباب المتعددة خير أم التوحيد وعبادة الإله الواحد الأحد ؟ .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

٤ ـ عفة الداعية :

لقد تجلت عفة يوسف في صبره وجلده وانتصاره على كل عوامل أغواء زوجة عزيز مصر وقد غلقت الأبواب وأبعدت الرقباء ، إلا أنه يعرض عنها ويقاوم قائلاً ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ وفاءً وإخلاصاً لزوجها ، فضلاً عن عامل الرقابة الإلهية وتقوى الله

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

٥ ـ الداعي عفو كريم :

يوسف يعفو عن إخوته وقد أساؤوا إليه، يعفو عنهم وهو قادر على الأخذ والعقاب فقد كانت السلطة بيده ، ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[2] . فأجابهم يوسف إجابة المتسامح ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ ﴾[3] .

يعفو عنهم يوسف ثم يدعو الله تعالى أن يتجاوز عن سيئاتهم .

---

(١) يوسف : ٦٧ .
(٢) يوسف : ٩١ .
(٣) يوسف : ٩٢ .

خاتمة

لقد أبانت هذه التأملات عن عواقب الأعمال : إن خيراً فخير وإن شراً فشر، أبانت عن عاقبة الصدق وحسن عواقب الصادقين، عاقبة الصبر وحسن عاقبة الصابرين المتقين وكشفت عن أحوال الخائنين وقبح طرائق الكاذبين .

كشفت عن ابتلاء المخلصين بأنواع المحن والشدائد ثم تبديلها نتيجة الصبر والتقوى بأنواع الألطاف والمنن الإلهية .

وإذا كان الله تعالى يقول لنبيه وحبيبه محمد ﷺ : يا محمد إن الله القادر الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب وإعلائه بعد حبسه في السجن ثم صيره ملكاً على مصر بعد أن ظنوه عبداً لهم وجمعه مع والديه وأخوته على ما أحب بعد فراق دام سنين طويلة ، لقادر على إعزازك يا محمد ونصرك وإعلاء دعوتك .

ومن نتائج هذا ما كان من عموم اللفظ لا خصوص السبب ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فبالصبر والتقوى والجد والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله والثقة في نصر الله ، ينصرنا الله وما أحوج المسلمين اليوم إلى العودة الفورية إلى شرع الله وتنحيه كل شرع دون شرعه والنأى لكل منهج دون منهجه سبحانه .

وبعد : فهذا بعض ما يسر الله تعالى لي فإن كان صواباً فهو محض فضل الله تعالى وإن كان غير ذلك فمن نفسي والله أسأله العفو والعافية .

محمود ماضي

فهرس المراجع

أولاً : القرآن الكريم وعلومه :

١ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : الفيروز آبادي ـ مطابع الإعلانات الشرقية بالقاهرة .

٢ ـ تفسير القرآن العظيم : ابن كثير : الحلبي بمصر .

٣ ـ الجامع لأحكام القرآن : القرطبي : دار الشعب بمصر ، دار الريان للتراث بمصر .

٤ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني الألوسي : دار إحياء التراث .

٥ ـ عصمة الأنبياء : الرازي : ط ٢ : ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٦ ـ عصمة الأنبياء بين : اليهودية والمسيحية والإسلام محمود ماضي : مكتبة الإيمان بالإسكندرية ١٩٩٠ م .

٧ ـ في ظلال القرآن : سيد قطب : دار الشروق بيروت .

٨ ـ الكشاف : الزمخشري : دار الريان للتراث ١٩٨٧ م .

٩ ـ مفاتيح الغيب : الرازي : دار الفكر بيروت ١٩٨٥ م .

ثانياً : مصادر متنوعة :

١ ـ إحياء علوم الدين : الغزالي : دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .

٢ ـ أدب الدنيا والدين : الماوردي : دار الشعب بمصر ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .

٣ ـ تهذيب الأخلاق : الجاحظ : دار الصحابة للتراث بالإسكندرية ١٤١٠ هـ ـ ١٢٨٩ م .
٤ ـ الرسالة التدمرية : الإمام ابن تيمية : تحقيق محمد بن عودة العوي ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م . شركة البيكان . الرياض .
٥ ـ رسالة المسترشدين : الحارث المحاسبي (تحقيق عبد الفتاح أبو غدة) ، مطابع دار السلام بمصر ١٩٨٥ .
٦ ـ شفاء العليل : الإمام ابن القيم .
٧ ـ الصبر في القرآن : يوسف الفرضاوي : مكتبة وهبة ١٩٧٧ م .
٨ ـ عدة الصابرين : الإمام ابن القيم . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ .
٩ ـ الفتاوى الكبرى : الإمام ابن تيمية : دار المعرفة بيروت ١٣٨٥ هـ .
١٠ ـ الفوائد : الإمام ابن القيم : دار الحديث بالقاهرة ١٩٨٨ م .
١١ ـ مختصر الصواعق المرسلة : الإمام ابن القيم : دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
١٢ ـ معالم الشورى في الإسلام : محمود ماضي .
دار ابن الأرقم بالزقازيق ١٩٩٠ م .
١٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث : قنسنك .
١٣ ـ منهج الإمام ابن القيم في أصول الدين : محمود ماضي ، مكتبة الإيمان بالإسكندرية ١٩٩٠ م .

فهرس بالموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
تعريف بالسورة. لماذا هي أحسن القصص ؟ ماذا أريد بالتأملات ؟	٧

الفصل الأول

الصبر حقيقته. وأقسامه ؟	١١
صبر يوسف على محن الجب	١٥
صبر يوسف على محن الإسترقاق	١٥
صبره على محن المراودة	١٦
صبره على محن السجن	١٩
صبره على الابتلاء بالنعيم والملك	٢١
صبر يعقوب على فراق ولده	٢١
لماذا آثر يعقوب يوسف بالحب دون أولاده ؟	٢١
عاقبة الصبر والصبر جميل	٢٤
ما مشروعية طلب الإمارة وتزكية النفس ؟	٢٧

الفصل الثاني

الحسد وعواقبه	٣١
حسد أخوة يوسف وحقدهم عليه	٣٢

كذبهم على أبيهم ٣٣
محاولتهم قتل يوسف ٣٣
أفعالهم في ضوء قصص الأنبياء ٣٤
الكذب المحرم والكذب المباح ٣٥
الصدق المحرم ! ٣٨

الفصل الثالث

عصمة يوسف ٤١
براءة يوسف دليل العصمة ٤٥
الاستعانة بالله وحده ٤٩
ما حكم الإستعانة بالبشر ؟ ٥١
ما معنى قوله : «اذكرني عند ربك»؟ ٥١
لا دافع لقضاء الله ٥٢
فائدة : حول حرية الإرادة الإنسانية ٥٥
« إن الله غالب على أمره » ٥٧
أين إرادة الإنسان أمام إرادة الله القاهرة ؟ ٥٧
حكمة الداعي إلى الله تعالى ٥٧
الدروس المستفادة: ٦٢
الثقة في الله تعالى ٦٢
التوكل على الله لا يضاد الأخذ بالأسباب ٦٢
المحنة لا تمنع الداعي من الدعوة ٦٣
عفة الداعية ٦٣
الداعي عفو كريم ٦٣
خاتمة ٦٥
فهرس بالمراجع ٦٧
فهرس الموضوعات ٦٩